هل تتوقف اوتاره عن عزف الروائع؟

هاجس الربح يعرّض آلة العود للابتذال ويفقدها قيمتها الف

كما تفتح هذه الدراس
الباب واسعاً امام حر
والخلق وصولاً الى آلة
حيث القيمة الفنية، وف
قد قدمنا خدمة جليل
العربية، تضاف الى
وغني في هذا المجال
لأجيالنا الصاعدة آلة م
الضياع.

* * *

* هل تتوقف اوتار ال
الروائع الخالدات؟

نزيه غضبان رائد ف
اعادة القيمة الى هذه الآ
فهل تساعده المؤسسا
بلوغ اهدافه ومراميه؟

□ انطو

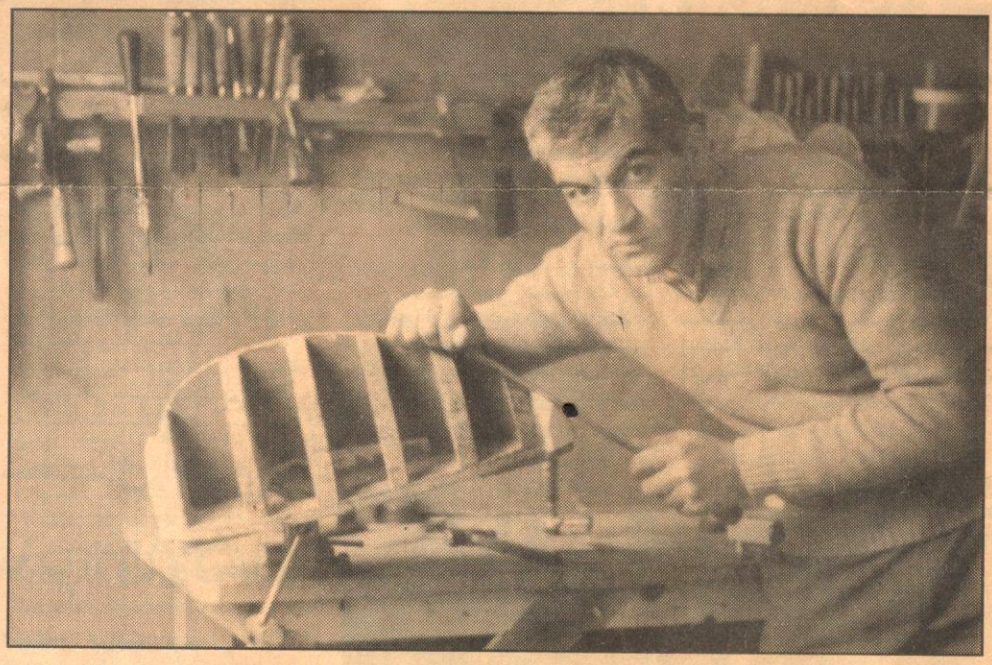

العود، تلك الآلة الموسيقية التي اسماها الكندي في رسالته «اللحون والنغم»، آلة الحكماء، وقال فيه الامام الغزالي: «لم يبهجه الربيع وأزهاره ومن لم يطربه العود وأوتاره، فهو فاسد المزاج ليس له علاج»، وقيل فيه ايضاً: «العود سلطان الآلات وجالب المسرّات»، ووصفه الفارابي في مؤلفه «كتاب الموسيقى الكبير»، في انه اشهر الآلات، واعتبر «عماد التخت العربي (العود - القانون - الكمان - الرق)، فهو «اهم الآلات الوترية في الموسيقى العربية»، وهو أيضاً «رفيق المطرب عند ادائه، اذ لا يعيقه عن الغناء ورفيق الملحن عند تلحينه»، هذه الآلة الموسيقية العجب التي ظهرت عند قدماء المصريين منذ اكثر من ٣٥٠٠ عاما، هي مهددة الآن بالزوال بعد الابتذال في الصنع الذي تتعرض له، فمعظم الأعواد التي في السوق يغلب على صنعها الطابع التجاري. ودائما التجارة وهاجس الربح المادي وراء زوال القيمة، فالتفكير في كيفية تحقيق اكبر قدر ممكن من الانتاج بهدف الربح فحسب، يجعل القيمة الفنية والموسيقية للآلة تقع ضحية لذلك، وهذا هو الخطر الكبير الذي يهدد وجود آلة العود الصحيحة ويتسبب في وفرة الأعواد الرديئة التي تجعل العزف الصحيح والجميل صعب المنال، بل مستحيلا.

امام هذا الواقع الذي يدعو الى كثير من القلق والتشاؤم وهذه «البازارية» المحدقة بـ«آلة الحكماء» هذه، نتساءل: هل وصلنا الى الحائط المسدود تجاه عودة القيمة الفنية الى هذه الآلة، وهل اقفل نهائياً باب التجديد والخلق والابتكار تطويراً لها وحفظا لقيمتها؟

ثمة من يجيب عن هذا التساؤل الملح، الذي يشترك في طرحه هواة العود ومحترفو العزف على أوتاره وجمهوره على حد سواء، هو نزيه غضبان من رأس بعلبك في البقاع الشمالي صانع آلة العود المتمرس منذ اكثر من ٢٥ عاماً، الذي يسعى الى تحقيق صنع عود مثالي مضبوط علمياً، فيقول: «ليس المهم ان تصنع عوداً، بل ان يكون العود الذي تصنعه جيداً، متكاملاً من ناحية الصوت والشكل، وهذا لا يحصل الا بالاطلاع على علوم عدة وخبرة وتمرس».

* ما هي هذه العلوم التي تجعل الملم بها صانع عود جيد؟

- عن هذا السؤال يجيب غضبان، وهو فضلاً عن انه صانع متمرس، باحث يعدّ دراسة معمّقة عن العود وصناعته: «هي علوم ثلاثة موسيقية، صوتية، وجمالية، تأتي شهرة الصانع ونجاحه وتميزه، ثمرة تطبيق مبادئها في الآلات التي يصنعها. من هنا تميزت اعوادي عن غيرها بحلاوة صوتها وجمال شكلها ودقة صناعتها».

نحكم على نجاح عمل معيّن ما لم يكن لدينا النظريات والقواعد الأساسية التي تحدد عناصر نجاح هذا العمل».

وعن دور علم الصوت في صناعة العود، قال: «ان معرفة الصانع مبادئ علم الصوت تجعله يحدد بدقة قياس العود الجيد (طول الوتر - قياس الصندوق الصوتي - قياس الشمسيات - سماكة الصدر...)، وهذا ما يساعده على ابتكار اشكال جديدة للآلة، مبتعداً عن التقليد والنسخ».

اما عن علاقة علم الجمال في صناعة العود خاصة والآلات الموسيقية عموما، قال: «ان جمال الآلة لا يكون مصادفة، بل نتيجة وجود علاقة نسبية بين أجزائها كافة (طول الزند - طول الطاسة وعرضها وعمقها...) وسر الموضوع الاساس هو تطبيق نسبة العدد الذهبي PROPORTION DU NOMBRE D'OR في صناعة العود.

وأما عن خبرة صانع العود في فن التجارة، رأى غضبان انه في ذلك ما يمكنه من اختيار الخشب الصالح الجميل الرنان غير الكاتم الصوت والذي يحافظ على نوعيته برغم مرور الزمن، وموضوع استعمال كل نوع من هذا الخشب في صناعة العود من جهة، وابتكار الطرق السهلة في الصناعة وهي التي تودي الى عود ذي بنية قوية متماسكة، من جهة اخرى.

ويتابع غضبان حديثه في اسرار تميز صناعته فيقول: «من اسرار تميز صناعتي، التعاون الوثيق والمستمر بيني وبين معظم اساتذة العود والوقوف على آرائهم في مجال تطور الآلة وبلوغ الهدف الاسمى، كي تأتي متكاملة، خالية من أية عيوب، فتلبي ما يتطلعون اليه في مجال العزف والتأليف.

ويعتبر ان من أهم عناصر نجاحه، هو أنه اول من اعتمد في صناعته على وثائق خاصة (يحتفظ بها) عن كل آلة يصنعها، فيدوّن فيها مواصفات هذه الآلة الخاصة بها (رقمها - صورتها - تاريخ صنعها - نوعية خشبها - مقاساتها - ملاحظات حول صوتها - وزنها). هذه الوثائق تكون بمثابة تجربة غنية مكتوبة تجعل الصانع يجدد بدقة عناصر نجاح عوده وتميزه عن سواه، بهدف ان تكون كل الأعواد التي يصنعها تحمل عناصر النجاح ليأتي الصوت جميلاً متساوياً في كل العلامات الموسيقية الصادرة عن الآلة. عن الدراسة التي يقوم باعدادها قال غضبان انها «تضع الأطر والقواعد الصحيحة لصناعة العود الجيد وتكشف عن الغموض والسرية اللذين يحيطان بهذه الصناعة، حتى يتمكن العازف والمطرب والصانع وكل من يحب هذه الآلة من التعرف اليها عن قرب، لجهة كيفية اختيار العود الجيد بأشكاله المختلفة وأساليب المحافظة عليه وتصليحه».

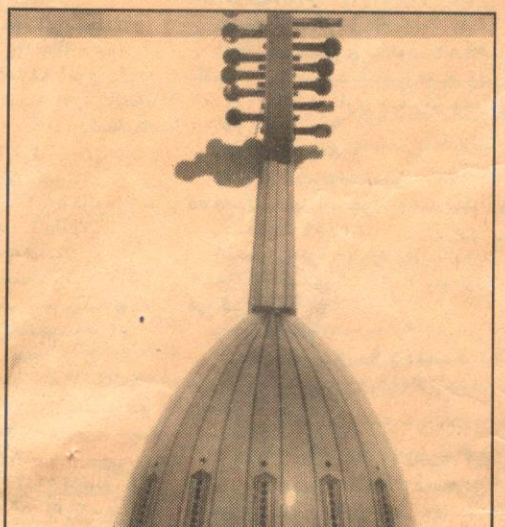

لمحة عن تاريخ العود وانتشاره

كثرت الدراسات التاريخية لآلة العود واختلفت الآراء حول اصله، بعضها يرى ان مخترع العود هو «لامك» من ابناء الجيل السادس بعد آدم، ويرى «المبرّد» في كتابه «التاريخ الكامل» أن اول من صنع العود هو نوح عليه السلام. وقيل ايضاً ان اول من صنعه هو جمشيد (ملك من ملوك الفرس). اما المستشرق الاستاذ فارمر فيرى «ان العرب قد اقتبسوا العود من الحيرة». ويذكر بعض المؤرخين «ان آلة العود ظهرت عند قدماء المصريين منذ اكثر من ٣٥٠٠ عاما.

وقد اهتم الموسيقيون الالمان بالتأليف للعود وترك عاهل الفن باخ قطعاً له خالدة.

وتنتشر صناعة العود اليوم في لبنان والعالم العربي ويدرّس في مختلف المعاهد الموسيقية، ففي